الشعر الأندلسي
في دراسات المستشرقين(*)

د . أحمد عبد القادر صلاحية

يسلّط هذا البحث بعض الأضواء على آراء قسم من دارسي الأدب الأندلسي من أعلام المستشرقين في الشعر الأندلسي مقتصراً على معالجتهم موضوع ترجّح الشعر الأندلسي بين التقليد والتجديد عامة من دون التعرض لنقد سائر تلك الدراسات وخصائصها الإيجابية والسلبية والآراء الجائرة والواهمة والخاطئة؛ فإنها من الكثرة بمكان حتى إن مادتها لتنوء بها أطروحة أكاديمية عالية .

لعل أول كتاب شامل ألفه المستشرقون عن الأندلس هو كتاب: «تاريخ مسلمي الأندلس حتى غزو المرابطين» (٧١١ – ١١١٠م) لمؤلفه المستشرق الهولندي الشهير راينهارت دوزي وقد صدر باللغة الفرنسية في أربعة مجلدات عام ١٨٦١م في ليدن بهولندة. ومجال الكتاب هو التاريخ وليس الأدب وإن كان يتطرق إلى الحياة الأدبية ويصدر بعض الأحكام بوصفها جزءاً منه، والمؤلف في هذا الكتاب يحكم على الشعر في عصر المرابطين بالضعف والابتذال والتقليد وهو العصر الذي وصل فيه الخيال

(*) البحث – في الأصل – قسم من الفصل الأول من أطروحتي للدكتوراه «صور الخيال في الشعر الأندلسي» .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

الشعري الأندلسي إلى القمة الشعرية، ولا غرو في ذلك فعنوان الكتاب: «حتى غزو المرابطين» وليس حتى نجدة المرابطين للأندلس، وكذلك زمن تأليفه كلاهما يوحيان بتعصب صاحبه وتشويهه صورة عصر المرابطين تاريخاً وأدباً، يقول: «وكان الحال على العكس من ذلك في حكم علي المرابطي، ففي ظل هذا الرجل التافه حلّت النساء والفقهاء محل كبار الناس وأشرافهم، وكان الشعر صورة صادقة للعصر فانتقل من القوة وخلو البال والخفة واللهو إلى الجبن والجفاف والحزن والتدين وكانت هذه الأزمان من السوء بحيث أخذت العيون ترتفع عن الأرض إلى السماء. كان أهل هذا الزمان يقاسون ويستسلمون في حين كان أهل العصر الذي سبقه يغالبون المقادير واختفت لهذا الصور الشعرية الجميلة، فإذا تصدى الشعراء للصور القديمة يحاولون تقليدها لم يلبثوا أن يتخبطوا في السخف والابتذال»[1] .

ولمثل هذه الآراء الخاطئة انبرى عدد من المستشرقين للرد عليه وتفنيد أقواله التي تجانب الصواب منهم «فرنشكو قُديرة» و «خُليان ريبيرا» و «بالنثيا»[2] ومع ذلك فقد أثرت بعض آرائه الواهمة في شطر كبير من دارسي الأدب الأندلسي في العصر الحديث بسبب عقدة التفوق الأوربي التي تمثلت في اعتماد المقبوسات الأجنبية شواهد وبراهين لايأتيها الباطل من جوانبها كافة .

وتلا هذا الكتاب الرائد سفرٌ للمستشرق الألماني الكبير البارون فون شاك وعنوانه «الشعر والفن العربيان في إسبانية وصقلية» وقد طبع[3] في

(١) عن كتاب بالنثيا: تاريخ الفكر الأندلسي ص ٢٠ وقد طبع الجزء الأول منه بعنوان «تاريخ مسلمي إسبانيا» سنة ١٩٦٣ ثم طبع حديثاً الجزءان الأول والثاني بعنوان «المسلمون في الأندلس» بترجمة د. حسن حبشي سنة ١٩٩٤ .

(٢) بالنثيا: تاريخ الفكر الأندلسي ص ١٩ – ٢٠ – ٢١ .

(٣) ترجم قسم الفنون منه د. الطاهر مكي وطبع بعنوان: «الفن العربي في إسبانيا وصقلية» ط١– ١٩٨٠، ط٢– ١٩٨٥ وذكر أنه ترجم الجزء الأول من الكتاب ولم يصل إلينا بعد .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

ثلاثة مجلدات عام ١٨٦٥، وفيه يعترف بروعة الأخيلة الشعرية الأندلسية، ولكن هذه الروعة لاتلبث أن تتحول إلى ذم، يقول: «إن أشعار الأندلسيين تمتاز بصفة عامة بجزالة الألفاظ وجمال رنينها وإبداع الأخيلة وبعد مداها، وبدلاً من أن يجعلوا الألفاظ مراكب للأفكار وبدلاً من أن يدعوا القلوب تعبر عن أحاسيسها في فيض طبيعي نجدهم يغدقون علينا طوفاناً من الألفاظ الرنينة والأخيلة البراقة، وكأنما لم يقنعوا بتحريك عواطفنا وطلبوا إعشاء أبصارنا. وإن أشعارهم لأشبه بألعاب نارية تومض ثم تتلاشى في الظلام فتبهر العقول لحظة بوميضها ولكنها لاتترك في النفس أثراً دائماً، وذلك بسبب ماتحويه هذه الأشعار من الألوان المختلفة وصور التشبيهات يتوالى بعضها في إثر بعض دون هوادة، وقد كان ترامي كثير من الشعراء على التفوق ورغبتهم في الإتيان بأحسن مما أتى به من سبقهم أو نافسهم من مشاهير الشعراء سبباً في إسراف الكثير من أشعارهم في ذلك التكلف إسرافاً أدى إلى ضياع قيمتها إذ أصبحت مجرد إيماض عابر لايترك في النفس أثراً»(١) .

إنه لعجيب حقاً تحول الخيال– وهو مكمن الجمال ومواطن الفخر في الشعر– من مزية إلى نقيصة وأعجب منه تغير رأي المستشرق وتقزم ثنائه على الشعر الأندلسي وضموره بأسلوب قوي مقنع فيه لمع شعرية، فبعد أن وصف الشعر الأندلسي بأنه يمتاز «بإبداع الأخيلة وبعد مداها» يجعل الأخيلة أحد سببي سقوط الشعر فيصفها بالبراقة وليست الأخيلة الأندلسية كذلك، ومن ثَمَّ يجرّه هذا النعت إلى وصفها بألعاب نارية ويدَّعي أن كثرتها واكتظاظها قد أفقداها بهجتها وجدتها، وينسى أنه أتانا بثلاث صور متواليات في أسطره الأولى فإذا كان لا وعي المؤلف قد قاده إلى إيراد تلك

(١) بالنثيا : تاريخ الفكر الأندلسي ص ٤٦– ٤٧ .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

الصور في نقده الأدبي وهو أبعد ما يكون عن مجال الإنشاء من صنوف النثر، وكذلك فإن النثر كله كما يرى علماء اليونان لايتطلب الخيال مطلقاً فلا جرم أن يكثر الشعراء الأندلسيون من الخيال في أشعارهم فإنه مما لاشك فيه أن الشعر هو الأرض الطبيعية الخصبة لبذار الخيال كما أن الخيال هو عماد نظريتهم الشعرية الأندلسية– كما سنرى– وعماد الشعر العظيم، هذا مع إيماني الكامل بأن الشعر كلٌّ متكامل لايغني بعض فيه عن بعض وإنما يقع الخيال في رأس العناصر الشعرية المكونة له لأنه هو الذي يمنح الشعر لونه المتميز وطعمه الشهي ونكهته الخاصة .

وقد تصدّى المستشرق كراتشكوفسكي لنقد الكتابين السالفين فقال: «تنعكس في كلا الكتابين التيارات الأدبية في ذلك العصر، وكذلك وضع المصادر؛ فكلاهما مشبع بالنزعات الرومانتيكية التي وقع المؤلفان تحت تأثيرها، وأدى عدم وجود أعمال سابقة في هذا الميدان وكذلك قلة الكتب ذات الطابع النقدي إلى استخدام المؤلفين لبعض المواد العشوائية أحياناً... وفي الغرب وعندنا على السواء ظل كتابا دوزي وفون شك لمدة طويلة المصدر الذي استقى منه كل المؤلفين الذين تناولوا تاريخ الشعر العربي في الأندلس»[١]. وكان قد ذكر المستشرق كراتشكوفسكي أنهما ظلا «حتى نهاية العقد الثاني من قرننا الحالي المرجعين الأساسيين لتاريخ الشعر العربي في الأندلس»[٢] .

وفي عام ١٩٢٨ أصدر المستشرق الإسباني الكبير آنخل جونثالث بالنثيا كتابه تاريخ الأدب العربي الإسباني في برشلونة، ثم أصدر الطبعة الثانية منه منقحة مزيدة عام ١٩٤٩ وقد «نقله إلى العربية غير ملتزم بالنص

(١) كراتشكوفسكي: الشعر العربي في الأندلس ص ٧٥– ٧٦ .

(٢) المرجع نفسه ص ٧٥ .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

الدكتور حسين مؤنس بعنوان تاريخ الفكر الأندلسي – القاهرة ١٩٥٥»[١] . وقد استمد بالنثيا في الطبعة الثانية جلّ آرائه عن الشعر الأندلسي من المستشرق الإسباني الكبير غرسيه غومث الذي أصدر كتابه «قصائد عربية أندلسية» عام ١٩٣٠ في مدريد وترجمه د. حسين مؤنس وأصدره بعنوان «الشعر الأندلسي»؛ لذلك سأكتفي بالوقوف قليلاً عند آراء المستشرق غومث في مدى تبعية الأدب الأندلسي للمشرق وفي الخيال الأندلسي.

منذ البداية يفجؤنا المستشرق غومث بقوله: «نبع الشعر الأندلسي – موضوع كتابنا هذا – من بحر الشعر المشرقي»[٢] ومن ثم يتهجم على الشعر الأندلسي فكراً ونظرية وخيالاً يقول: «ولا بد أن ننبه من أول الأمر إلى أن الشعر الأندلسي – عامة – فيما خلا بضع شواذ – فقير جداً من الناحية الذهنية التفكيرية، ومن دلائل ذلك أن الناحية التي تأثروا بها من المتنبي كانت ناحية البراعة لا ناحية التفكير. وعاشوا أعمارهم كلها مكبلين بقيود القوالب الشكلية الجامدة، ومن ثم لم يستطيعوا أن يدخلوا على الشعر من التغيير إلا أشياء تمس المعاني – مثلهم في ذلك مثل أترابهم المشارقة – فحاولوا أن يعطوا هذه المعاني صوراً جديدة عن طريق تقطيرها في أنابيق بلاغية وأوغلوا في ذلك حتى استخرجوا منها تلك الزخارف الشعرية الأربسكية التي تشبه أن تكون «قصور حمراء» لفظية فإذا كانت القصائد الأندلسية المنمقة المترفة المعقدة المثقلة على هذه الدرجة من البعد عن الترتيب الذهني بل عن الإحساس الإنساني في أحيان كثيرة فمن الطبيعي أن تنقصها تلك المرونة السائغة التي نجدها في الشعر القديم»[٣] .

(١) مكي: الحضارة العربية في إسبانية ص ٢١٢ .

(٢) غومث: الشعر الأندلسي ص ٢٤ .

(٣) المرجع نفسه ص ٢٥ .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

منذ البداية يقرر المستشرق غومث أن الشعر الأندلسي فقير فكرياً بعيد عن الإحساس الإنساني وما خرج عن هذين الوصفين فهو شاذ لا يقاس عليه بل يثبت صحة الوصفين. سبب هذا الحكم أن الشعراء الأندلسيين – ويشمل معهم الشعراء المحدثين المشرقيين – لم يغيروا شيئاً من الشعر سوى أنهم كسوا المعاني حللاً جديدة من الأخيلة والصور بالغوا في تجميلها – وهذا أحد أهداف الشعر الفنية – ولكنه يصوغه صياغة مغالطة ويلفّه بالإثم ويغلو في تضخيمه وتجريده من الحياة ويصوره زخارف شعرية معقدة تبهر العين ولكنها لاتلج القلب. ومعنى هذا أن الصياغة الفنية الغنية بالأخيلة هي التي تجعل الشعر الأندلسي فقيراً فكرياً معدماً إنسانياً. وفي ظني أن شعراً بمثل هذه النعوت ليس جديراً بأن يقف عليه الباحثون وتوقف الأقلام عليه، فلماذا عكف عليه المستشرقون واختصوا به وتخصصوا له. ومما يعجب له أيضاً أن المترجم د. حسين مؤنس – على علو كعبه في مضمار الأدب الأندلسي – ينقل هذا الرأي وأمثاله وما هو أقسى منه إلى اللغة العربية من دون تعليق عليه.

ثم يكمل المستشرق غومث حديثه ويفرد الخيال بحديث قصير يشبه ماذكره – قبله – فون شاك إذ يحيل تميزهم به نقيصة لا مزية مدعياً أن ذلك كان سبب ضياع الشعر الأندلسي !! يقول: «ولم يكن هذا الشعر الأندلسي مترعاً بالأخيلة فحسب بل كان مثقلاً بها حمل منها فوق مايطيق بل بلغ من حشد المعاني فيه أن استعصى معظمه على الحفظ والبقاء وكاد يعسر على الفهم الكامل وكما يحدث لشجرة مثقلة بالثمار إذ تسقط عنها الثمرات واحدة فواحدة فكذلك وقع الشعر الأندلسي، لم يبق لنا منه إلا ماالتقطه أصحاب كتب المختارات من تشبيهاته ومعانيه وإذا نحن استثنينا بضعة دواوين وقصائد مشهورة وصلت إلينا كاملة فإن مالدينا من الشعر الأندلسي

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

قد وصل إلينا مقطعاً مبتسراً بل مطحوناً يتألق هشيمه الدقيق ببريق الماس»[١].

ومن السهولة بمكان رد قوله بقوله نفسه بتمثل قول الشاعر: «لاتنه عن خلق وتأتي مثله»، فأحكامه النقدية على الشعر الأندلسي مصوغة بصور خيالية متوالية، ولا غرو أن يكون الخيال غزيراً والصور الفنية غنية في الشعر الأندلسي لأنهما جوهر الشعر وأداته الفضلى في جميع عصوره، وهما – كذلك – عماد نظرية الشعر الأندلسية. أما فقدان الشعر الأندلسي فله أسباب كثيرة – أشرت إلى أهمها في مقدمة البحث – وليس الخيال أحد تلك الأسباب .

ويقع هذا المستشرق الكبير في مزالق التناقض في اندفاعه السريع نحو تجريد الشعر الأندلسي من كل المزايا وقلب مزاياه نقائص وعيوباً، إذ يضيف – هنا – فقراً عاطفياً على الفقر الذهني ويتبعه بفقر في الخيال وتكرير للصور في أهم الأغراض الشعرية مع أنه وصف الخيال الشعري الأندلسي – من قبل – بالغنى الشديد وأن الشعر الأندلسي كان مثقلاً بالأخيلة حمل منها فوق مايستطيع وأن الشعراء الأندلسيين أخرجوا المعاني في أشكال وصور جديدة لاتحد، يقول: «وقد سبق أن أشرنا إلى قصور هذا الشعر الأندلسي من الناحية الذهنية، ونظننا لسنا بحاجة إلى أن نضيف إلى ذلك أنه كان فقيراً من الناحية العاطفية أيضاً فيما خلا فلتات قليلة، فلم يصدر هذا الشعر عن فيض العاطفة الصادقة إلا في النادر، والغالب عليه تكرار صور بعينها في الوصف أو المديح أو الإخوانيات، ويطغى على القصيدة كلها ظل من قيلت له أو فيه»[٢] .

(١) المرجع نفسه ص ٢٦ .

(٢) المرجع نفسه ص ٧٦ .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

وبذلك يناقض قوله السابق وقوله التالي: «وقد كان العرب من أكثر خلق الله ابتكاراً للتشبيهات»[١] .

ولذلك أستطيع القول بأن نظرة المستشرق الكبير غومث إلى الشعر الأندلسي لم تكن صائبة ولا دقيقة ولا متسقة، ولم تخرج في مجملها عن نظرات المستشرقين إليه في تلك المرحلة .

أما المستشرق الروسي الكبير إغناطيوس كراتشكوفسكي فقد كان أكثر اعتدالاً من سابقيه فقد بدأ كتابه: «الشعر العربي في الأندلس» الذي كتبه سنة ١٩٤٠ بإضفاء صفة العالمية على الأدب الأندلسي يقول: «إن الشعر العربي في الأندلس ليس مجرد فترة من تاريخ الأدب العربي فإن هذه الفترة من وجود العرب في شبه جزيرة إيبريا لايقتصر ارتباطها على حياة الأقطار العربية وحدها وعندما يجري الحديث عن تطور الثقافة العالمية فإن هذا الماضي يعطينا مثالاً واضحاً لتمييز الحدود بين الشرق والغرب ويدخل الشعر العربي في الأندلس في نطاق الثقافة والأدب العالمي»[٢] .

ومع اعتقاد هذا المستشرق بتميز الأدب الأندلسي وأثره الكبير في شعراء التروبادور وكونه مركز التفاعلات الشرقية والغربية فإنه جعل الشعر الأندلسي كله كلاسيكياً لسيطرة التراث المشرقي عليه؛ يقول: إن «طبيعة ومثل وأفكار الشعر العربي في إسبانية كانت تتخذ لنفسها الطابع الموجود في الخلافة في الشرق»[٣]، وعلى نطاق الشعر يقول: «وفي الأندلس احتفظت القصيدة بشكلها دون أي تغيير اللهم إلا في حدود التغييرات التي أُدخلت عليها في الشرق»[٤]، أما السبب في رأيه فلأن الأندلسيين كانوا «يتجهون

(١) المرجع نفسه ص ٩٣ .

(٢) كراتشكوفسكي: الشعر العربي في الأندلس ص ٩ .

(٣) المرجع نفسه ص ١٢ .

(٤) المرجع نفسه ص ١٤ .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

إلى الشرق للبحث عن أهم المعايير والمقاييس لتقييم شعرهم»[١] ويجمح به التوهم إلى القول عن الشعراء الأندلسيين: «فلكي يعترف بهم كان يلزمهم بالضرورة إقرار وتصديق من الشرق»[٢] وكل ذلك مما لادليل عليه بل يناقضه التاريخ النقدي العربي .

أما موضع التجديد في الشعر الأندلسي فهو الشكل بما يشتمل عليه من اللغة وهندسة الأبيات والأشطار – متمثلاً – في الموشح والزجل، فيرى أن الأندلس وإن كانت قد أخذت عن المشرق نوعين من الشعر هما القصيدة والمقطوعة؛ فإن المشرق قد أخذ عنها نوعين آخرين هما: الموشح والزجل، يقول: «وهكذا وصل من الشرق إلى إسبانيا في صورة كاملة نوعان من الأشعار: القصيدة والمقطوعة، لكن أدى تطور الحياة الأدبية هناك إلى ظهور نوعين جديدين من الشعر المقطع وهما: الموشحات والأزجال»[٣] .

كذلك فإن المستشرق الفرنسي الكبير ليفي بروفنسال يقصر التجديد في الشعر الأنلسي على الشكل – مثلما رأى المستشرق كراتشكوفسكي، ويحصره في الموشحات والأزجال، يذكر ذلك في مقدمة محاضرته الأولى التي ألقاها عام ١٩٤٧ في مصر ثم جمعت مع غيرها في كتاب بعنوان: «سلسلة محاضرات عامة في أدب الأندلس وتاريخها» يقول: «ولكننا سنرى كذلك أن الأندلس – وإن استحقت بوفرة إنتاجها الشعري ذي النزعة الكلاسيكية المجددة أن تحتل مكاناً ممتازاً – لم تكن مجددة حقاً إلا بما أنشأت من شعر شعبي ومن أنواع شعرية مبتكرة، فإن الأندلس موطن الموشحات والأزجال وعنها أخذهما الشرق»[٤] .

إن أسلوب إصدار هذا الحكم الخطير يمزج بين مدح الشعر الأندلسي وذمه؛ يمهد بمدحه ويجعل من ذمه حقيقة يشق عليه الاعتراف بها ولكن

(١) المرجع نفسه ص ١١ .

(٢) المرجع نفسه ص ١١ .

(٣) المرجع نفسه ص ١٥ .

(٤) بروفنسال: سلسلة محاضرات عامة ص ٢ .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

لامناص من قولها، تدفعه إليها الأمانة العلمية، تطم على المديح الآنف وتمحوه فقوله: إن الشعر الأندلسي لم يكن مجدداً حقاً يزعزع أركان المكانة الممتازة التي سبق له نعت الشعر الأندلسي بها ويقوض أعمدتها .

لايكتفي المستشرق بروفنسال بنفي التجديد أي الزعم بأنه تقليد للشعر المشرقي ومحاكاة لصوره بل يجعله صورة باهتة شاحبة عنه، ولا يقر له قرار حتى ينفي أقوال بعض الدارسين الذين يرون في الشعر الأندلسي سمات أندلسية خاصة، ويرد عليهم بأسلوبه البراق الموهم السابق يقول: «ولأسرع إلى تعزيز حكم عام قضيت به في أمر الشعر الأندلسي منذ بضع سنين فإني – وإن كنت أحس في نفسي إكباراً له وإعجاباً به في كثير من الأحيان – أخالف بعض النقاد المحدثين الذين لم يدرسوا إلا الشعر العربي الإسباني الكلاسيكي والذين يرون في هذا الشعر طابع حساسية أندلسية بحت فلست في الحقيقة أعتقد صحة ذلك الرأي اللهم إلا إذا استثنينا ابن حزم[1] . والحق أن إسبانيا لم تقطع صلتها قط بالعالم الإسلامي في ميدان الشعر وأنه لم يوجد من شعرائها الكثيرين الذين قرضوا الشعر على أسلوب كلاسيكي شاعر

(١) «ابن حزم (٣٨٤ – ٤٥٦هـ = ٩٩٤ – ١٠٦٤م) علي بن أحمد بن سعيد بن حزم الظاهري، أبو محمد: عالم الأندلس في عصره وأحد أئمة الإسلام، كان في الأندلس خلق كثير ينتسبون إلى مذهبه يقال لهم: الحزمية. ولد بقرطبة وكانت له ولأبيه من قبله رياسة الوزارة وتدبير المملكة فزهد بها وانصرف إلى العلم والتأليف فكان من صدور الباحثين فقيهاً حافظاً يستنبط الأحكام من الكتاب والسنة بعيداً عن المصانعة، وانتقد كثيراً من العلماء والفقهاء فتمالؤوا على بغضه وحذروا سلاطينهم من فتنه ونهوا عوامهم من الدنو منه فأقصته الملوك وطاردته فرحل إلى بادية لبلة (من بلاد الأندلس) فتوفي فيها. رووا عن ابنه الفضل أنه اجتمع بخط أبيه من تآليفه نحو ٤٠٠ مجلد تشتمل على قريب من ثمانين ألف ورقة، وكان يقال: لسان ابن حزم وسيف الحجاج شقيقان. أشهر مصنفاته: «الفصل في الملل والأهواء والنحل– ط» وله« المحلّى– ط» في ١١ جزءاً فقه– و «جمهرة أنساب العرب– ط» و «الناسخ والمنسوخ– ط» و «حجة الوداع– ط» غير كامل وديوان شعر و «طوق الحمامة– ط» وغير ذلك. وللدكتور عبد الكريم خليفة «ابن حزم الأندلسي– ط» الزركلي– الأعلام ٤/ ٢٥٤ .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

واحد أراد – حقيقة – أن يلبس نفسه «ثوباً جديداً» إن صح هذا التشبيه. وقد لاننكر إشراق عبقريات طارئة ولكن القاعدة التي استمسك بها الأندلسيون وأكبروها إلى آخر الأمر هي محاكاة الشرقيين في نماذجهم، وهكذا أنشئت قصائد لاحصر لها في مدى ثمانية قرون منها ماهو جليل ومنها ماهو رائع ومنها ماهو جدير بالإعجاب أحياناً ولكنها – في مجموعها – ليست – في أكثر الأحيان – إلا صورة على شيء غير قليل من الذيول مأخوذة عن إنتاج المشرق العربي في عصره الأدبي الذهبي خاصة»(١).

إن هذا الحكم الذي قضى به ويود تعزيزه باطل من أساسه لأن الأدلة غير كافية، فلم يكن معروفاً حتى زمن إلقاء محاضراته سوى نزر قليل من الدواوين الأندلسية ولم يطبع منها حتى ذلك الوقت إلا أقل القليل، فلا يمكن القول بعدم وجود حساسية أندلسية – كما يسميها – أو سمات أندلسية في الشعر الأندلسي من دون موازنة كاملة مع الشعر المشرقي كما أن استثناءه ابن حزم ليس دقيقاً؛ فشعره المتبقي لايمثل تلك الحساسية الأندلسية التي نفاها عن الشعراء الأندلسيين ماعداه، أما الزعم بتقليد شعراء الأندلس قاطبة لشعراء المشرق فلقد غدا من سقط المتاع، وكذلك ادعاؤه بأنه لايوجد شاعر أندلسي واحد «أراد حقيقة أن يلبس نفسه ثوباً جديداً» فهو أوهى من بيت العنكبوت ويكفي قول الشّقندي(٢) عن ابن الزقّاق(٣) لدحضه

(١) بروڤنسال : سلسلة محاضرات عامة ص ١٨ .

(٢) «الشَّقُنْدي (... – ٦٢٩هـ = ... – ١٢٣٢م) إسماعيل بن محمد أبو الوليد الشقندي: أديب أندلسي له شعر من أهل شقندة Secunda مولده بها ووفاته بإشبيلية. ولي في وقت قضاء بياسة Baeza قرب جيّان وقضاء لورقة Lorca من أعمال مرسية. له رسالة في فضل الأندلس وصف بها أشهر مدنها، نشرت مترجمة إلى الإسبانية منها مخطوطة في الأحمدية بتونس (المجموع ٤٥٥١) في ١٩ ورقة، و «مناقل الدرر ومنابت الزهر– خ» في شستربتي (٤٢٥٤)، والمعجم في التراجم، نقل عنه صاحب الغصون اليانعة كثيراً حتى في تراجم المغاربة» الزركلي– الأعلام ١/ ٣٢٣– ٣٢٤ .

(٣) ابن الزَّقَّاق البلنسي (... –٥٢٨هـ=... – ١١٣٤م) علي بن عطية بن مطرف، أبو=

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

ونقضه: «وهل منكم شاعر رأى الناس قد ضجّوا من سماع تشبيه الثغر بالأقاحي وتشبيه الزهر بالنجوم وتشبيه الخدود بالشقائق فتلطف لذلك في أن يأتي به في منزع يصير خلقه في الأسماع جديداً وكليله في الأفكار حديداً فأغرب أحسن إغراب وأعرب عن فهمه بحسن تخيّله أنبل إعراب وهو ابن الزقّاق»[1] .

كما أن محاكاة المشرقيين في أعظم قصائدهم لم يكن – دائماً – للتشبه والتشرف بل كان للمعارضة والتفوق إذ إنهم جعلوا القدرة على المعارضة برهاناً على تفوقهم على المشارقة وتفردهم؛ لذلك كله أرى في حكم المستشرق مجانبة للصواب ونأياً عن الواقع الشعري العربي في الأندلس .

وأخيراً؛ أقف عند أكبر المستشرقين المعاصرين الدكتور فؤاد سزكين في سفره العظيم «تاريخ التراث العربي» وفيه ترجم لأهم الشعراء الأندلسيين حتى نهاية الخلافة الأموية في الأندلس، وعرّف بمصادر الشعر الأندلسي في ذلك العصر وقدّم له وللموشحات بمقدمة وجيزة حدّد فيها زمن تطوّر الشعر الأندلسي وتخلصه من إسار الشعر المشرقي بعد القرن الخامس الهجري، وهو زمن متأخر جداً عن واقع الشعر الأندلسي، وهو كذلك رأي شائع عند بعض دارسي الأدب الأندلسي العرب الأوائل، يقول: «من الجلي أن الشعر الذي تعهدوه بالأندلس وكان ممثلوه الأوائل من العرب الأمويين وأخلافهم لم يكن من الممكن أن يتطور من فوره مستقلاً عن المشرق، وينطبق هذا أيضاً على العصر الموافق لصدر الدولة العباسية، ولعل القول بأن هذا الشعر مر فيما

= الحسن اللخمي البلنسي ويعرف بابن الزقاق: شاعر له غزل رقيق ومدائح اشتهر بها، طلب العلم في بلنسية وقرأ على ابن السيد البطليوسي ومدح بعض القضاة وأعيان عصره وعاش أقل من أربعين عاماً. وشعره مشهور نزع فيه منزع خاله ابن خفاجة. وله ديوان شعري مطبوع. الزركلي– الأعلام ٤/ ٣١٢– الديراني– مقدمة ابن الزقاق ٢٧– ٤٥ .

(١) المقّري : نفح الطيب ٣/ ١٩٩ .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

تلا من تطوره بأدوار تشبه تلك التي مر بها الشعر المشرقي قول لايجانب الصواب مادام الاتصال الفكري بقي مكفولاً عن طريق الصلات الوثيقة المتنوعة، ولم تبدأ الصفات الناجمة عن اختلاف الأقاليم في الظهور إلا على نحو بطيء، وعلى ذلك إذا سمعنا بعض المتقدمين من ممثلي فن الشعر العربي يتحدثون عن أسلوب المشارقة أو المغاربة وجب علينا أن نفهم ذلك بهذا المعنى المقيد. ويزداد تصور مسار هذا التطور قوة إذا ماأخذنا في الاعتبار مسيرة التطور في فروع أخرى من العلوم العربية وعلى ماكتسبه إلى الآن كاتب هذه السطور من انطباع؛ فإن الصلة الفكرية للخلافة الشرقية لم تأخذ في التراخي إلا بعد القرن الخامس/ الحادي عشر»[1] .

إن الشطر الأول من القول السابق هو خلاصة آراء عدد من دارسي الأدب الأندلسي وهو قول ذو وجاهة ومنطقية؛ فمن الطبيعي ألا يتطور الشعر العربي في الأندلس ويستقل عن المشرق فور وصوله إلى الأندلس، ولكن قرنين أو ثلاثة قرون مدة كافية لحدوث التأثر بالبيئات الجديدة، كما أن القول بمرور الشعر الأندلسي بأطوار تقترب من الأطوار التي مر بها الشعر المشرقي منذ العصر الأموي قول منطقي وواقعي على اختلاف أزمنة هذه الأطوار عن مشابهتها المشرقية، ولكن إذا كان الشعر المشرقي قد انتقل من الطور المحافظ في العصر الأموي إلى الطور المحدث في العصر العباسي الأول ثم مزج بينهما لينتج الطور المشرقي المحافظ الجديد في العصر العباسي الثاني؛ فإن الشعر العربي في الأندلس قد انتقل من الطور المحافظ إلى الطور المحدث ثم مزج بينهما لينتج – متفاعلاً مع المؤثرات البيئية الجديدة – الطور المحافظ الجديد الأندلسي، وهذه نتيجة بالغة الأهمية لم يتوصل إليها د. سزكين في

(١) سزكين– تاريخ التراث العربي– الشعر ٥/ ٢٠، ٢١ .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

محاكمته السابقة فليس معقولاً أن الشعر الأندلسي يمر بمراحل تطور عامة تصيب أي شعر في أية بقعة ومن ثم يخرج شعراً مشرقياً لايظهر فيه أثر اختلاف الأقاليم إلا على نحو بطيء بعد القرن الخامس أي بعد أربعة قرون ونيف على حياة الشعر في الأندلس أي أكثر من نصف عمر الوجود العربي في الأندلس، والغريب أنه أمسك بطرف خيط كان يمكن أن يقوده – لو تابعه – إلى جادة الصواب، ولكنه أفلته بل فرض على قارئه طريقة فهمه «بالمعنى المقيد» ذلك الخيط هو حديث القدماء عن أسلوب المشارقة والمغاربة وما يميز كل واحد من الآخر، ولكن المؤلف يعود – بتواضع جم – بعد قليل ليصف شطراً من أحكامه بأنه صادر عن حيز الانطباع الذاتي لديه .

وأخيراً، لقد تتبع هذا البحث بدء الدراسات الشاملة عن الأدب الأندلسي لدى المستشرقين، ثم عرّج على أهم دراساتهم العامة والخاصة بها، فوجد أن الشعر الأندلسي لم ينل حقه أو بعض حقه؛ فلم يتناول تناولاً كاملاً، ولم يعالج معالجة كافية، وتباينت رؤيتهم للشعر فناست بين الزعم بضعفه وابتذاله أو المغالطة في جعل الخيال وهو مصدر سحر الشعر الأندلسي سبّة وكلاً عليه، أو الحكم بتقليده المشرق تقليداً كاملاً أو شبه كامل، وينحصر التجديد في إطار الشعر الخارجي الشكلي باختراع الموشحات والأزجال لذلك فقد استخلص أن معظم آرائهم في الخيال الشعري الأندلسي لم تكن دقيقة ولامنصفة، وأنها لم تخل من التعصب، ولم تنج من التناقض، ولم تخلص من التعميم .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net